القسم الثالث

لا مثيل لرسول الله ﷺ
في حلّ المعضلات

- الفصل الأول : رسالة القائد والحياة
- الفصل الثاني : القائد والعنصر الإنساني
- الفصل الثالث : القائد واستخدام الكفاءات في المكان المناسب
- الفصل الرابع : صاحب الفراسة المتنورة بالوحي
- الفصل الخامس: وحدة النظر والقدم

تمهيد

هناك بُعد آخر في فطنة رسولنا الكريم ﷺ وهو قيامه بحل كل المشاكل والمعضلات التي تظهر أمامه -مهما كان نوعها- بكل سهولة ويسر وكأنه يستل شعرة من عجين، وهذا دليل من أدلة رسالته ونبوته. هناك أمور مهمة يجب توفرها في كل إداري ناجح وفي كل قائد وزعيم نسطر بعضها فيما يأتي:

١. يجب ألا تكون الرسالة التي يحملها تتناقض مع الحياة أو تتصادم معها. ويجب أن يكون مصرًا على دعوته متمسكًا بها واثقًا أنها صالحة الآن وستكون صالحة في المستقبل. فكما يستطيع أي إنسان أن يشرح بكل ثقة ويصف بكل دقة حادثة رآها بأم عينيه ولا يخشى أن يتهم بالكذب في شهادته تلك، لأنه واثق من نفسه ومطمئن إلى قوله الحقيقة، كذلك لا بد أن يكون القائد أو الزعيم واثقًا نفس هذه الثقة من صحة الرسالة التي يحملها وكونها حقا وخيرًا. بل إن ثقته وحدها لا تكفي إذ يجب ألا تكون رسالته متناقضة مع الحياة ومعاكسة لها، أي يجب ألا تقف أمام رحى الحياة الدائرة.

٢. على القائد أن يكثف جهوده لتربية وإعداد الأفراد، وأن ينشغل على الدوام مع العنصر الإنساني، وأن تأخذ الثقافة محلا مرموقًا في جهوده.

٣. على القائد أن يعرف عناصر مجموعته معرفة جيدة، ويعرف لمن يعهد بمسؤولية معينة، ويعرف جيدًا مدى قابلياتهم والأعمال التي يستطيعون إنجازها. وعليه أيضًا أن يزن خططه بشكل لا ينزعج من سرعةِ وتيرة التخطيط لا الفردُ الاعتيادي في المجتمع ولا أنشطُ الأفراد.

٤. يجب أن يكون القائد منفتح الصدر لحل مشاكل أتباعه. وهذه المشاكل قد تكون مشاكل فردية أو عائلية، أو إدارية أو قانونية أو اقتصادية أو اجتماعية، فعلى القائد أن يكون قادرًا على حل جميع هذه المشاكل.

٥. يجب أن تكون تعليمات القائد وأوامره وتوجيهاته من النوع القابل للتطبيق، فالقائد الناجح يبتعد على الدوام عن التعليمات والاقتراحات الخيالية التي لا يمكن تطبيقها، أي على القائد أن يحدس أحداث اليوم وموضوعاته من اليوم السابق، وأن يحدس أمور

المستقبل منذ اليوم ويضع خططه على أساس هذه الرؤية البعيدة لكي لا تعرقل خطة اليوم الحالي التنفيذ في المستقبل وإلا تضاربت أعمال اليوم وأعمال المستقبل وعملت إحداهما ضد الأخرى. أجل، فالقائد الحقيقي يجب أن يحدس ما ستؤول إليه الحوادث الاجتماعية الحالية في المستقبل، لكي لا تفسد المفاجآت المستقبلية أعماله وخططه الحالية.

إذن، إن المبادئ الواقعية وغير الخيالية للقائد يجب ألا يسبقها الزمن، بل يجب أن تحتفظ هذه المبادئ بنضارتها وحيويتها على الدوام، بحيث أن إنسان كل عهد عندما يتوجه نحوها ويقبل عليها يجد فيها دواء لمشاكله وحلا لمعضلاته كمن يشرب من ماء الحياة، وتكون هذه المبادئ عصية على الزمان، فلا تتبدل بتبدل العصور والعهود، بل تزداد شبابًا وحيوية على مر العصور. ويكون على الدوام أفضل وأحسن من يطبق اقتراحاته وتعليماته ويعيشها بنفسه ويراعي أدق تفاصيلها.

عندما نطالع هذه المبادئ التي هي بعض شروط القيادة الناجحة ونأخذها بنظر الاعتبار نرى أن أفضل وأنجح قائد في تاريخ الإنسانية كلها هو محمد ﷺ صاحب الفطنة العظمى، وهذا يشمل جميع الأنبياء أيضا، ذلك لأنه كان قمة لم يصل إلى مستواها أحد في تطبيق جميع هذه المبادئ للقيادة الناجحة.

صحيح أننا نعتقد هذا من منطلق إيماننا، إلا أن الغرب بدأ يدرك هذه الحقيقة باستخدام الحاسبات والعقول الألكترونية، وهذا شيء مفرح لنا. والحادثة التي عدت بنظر الكثيرين مفاجأة كبيرة خُلاصتها وأساسها هي القيام بتثبيت الأوصاف والصفات والمميزات التي جعلت من أشخاص عديدين رجالاً عظماء وقادة كبارًا ثم إعطاء هذه المعلومات إلى العقول الألكترونية لكي تقوم بترتيب تسلسل هؤلاء العظماء حسب درجة عظمتهم، وبعد عمل طويل وشاق تم هذا الأمر وظهر على الشاشة اسم رسولنا ﷺ... أجل، لقد ظهر لهم أن أكبر قائد وأكبر زعيم وأعظم رجل هو رسول الله .ﷺ[1] والآن لنتناول هذه المبادئ التي ذكرناها ونعطي حولها بعض الأمثلة الشاخصة بعد أن ذكرناها بشكل تجريدي:

---

[1] يشير الكاتب هنا إلى قيام أحد الكتاب الأمريكيين، وهو "ميشيل هارات" بتغذية الحاسب الألكتروني بالمعلومات الضرورية لمعرفة أهم مائة شخص أثروا في التاريخ الإنساني، فكان الرسول ﷺ هو الأول في تلك القائمة. وصدر كتاب حول هذا اسمه "The Hundred". (المترجم)

الفصل الأول: رسالة القائد والحياة

لقد أتى رسولنا ﷺ بمبادئ عديدة للإنسانية، ولم يكن أي مبدأ منها يتصادم مع الحياة أو يتناقض معها. ثم إنه ذكر هذه المبادئ وهو واثق منها تمام الثقة ودون أن يحمل أي شك أو تردد أو ريبة حولها.

تناول في أحاديثه كل شيء تقريبًا... من العرش إلى الفرش... من الجنة إلى جهنم... من الإنسان الأول حتى يوم القيامة... تناول كل هذه الأمور بالشرح والإيضاح. واهتم على الأخص بشؤون أمته والحوادث الآتية المتعلقة بها حتى إنه عدد بعضها وأعطى لها الأسماء وكأنه يراها على شاشة تلفزيون دون أي تشوش. أجل، لقد كان واثقًا من كل ما يقوله، ذلك لأن الله تعالى بسط أمام ناظريه الكتاب المبين والإمام المبين وأراه الشيء الكثير من ألواح القدر... كان يرى ذلك ثم يشرحه، لذا فمن الطبيعي أن تكون المبادئ التي أتى بها مثل هذا الشخص العظيم مبادئ أبدية.وما أجمل ما قاله سلطان الشعراء نجيب فاضل:

الغد لنا... طبعاً لنا...

إن أشرقت الشمس أو غربت... فالأبد لنا.

يشرح هذا الشاعر بكلماته هذه مدى ثقته بمبدئه وعقيدته. وعندما نطالع كلمات هذيين البيتين على ضوء دعوة الرسول ﷺ فإنها تأخذ أبعادًا عميقة... الشمس تشرق وتغرب... والأيام والسنين والعصور تمضي، ولكن الرسالة التي أتى بها رسول الله محمد ﷺ ستبقى خالدة إلى الأبد.

أ. كان واثقاً وذا عزم

يروي ابن إسحاق رحمه الله أن قريشًا قصدت أبا طالب للتفاوض مع رسول الله ﷺ فاستدعى أبو طالب النبي ﷺ وقال له: هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. كان رسول الله ﷺ واثقًا من نفسه ويعرف ما يريده فقال: «أريد منهم أن يقولوا كلمة واحدة يحكموا بها العرب والعجم.» ففرح القوم وقالوا: فديناك بأنفسنا... وما

هي؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تملكوا بها العرب والعجم.»[1] وفعلاً حكموا العرب والعجم...

وما أكثر الدول والأمم التي أسرعت إلى ظلال الإسلام... وأمتنا الأصيلة هذه انتبهت إلى الإسلام مبكرًا وأسرعت إليه قبل أحد عشر عصرًا دون أن تضيع وقتًا كثيرًا... تأملوا..! لقد أسرعت جماعة تتألف من ألف خيمة إلى الإسلام في ظرف سنة واحدة ودون أن يكون هناك أي إكراه. وهذا الإقبال المخلص على الإسلام هو الذي يسر لهم رفع راية الإسلام في العالم أجمع والدفاع عنه طوال عشرة قرون تقريبًا... فظهر منهم حملة لراية الإسلام مثلما كان حمزة ومصعب والزبير وابن جحش من الحملة الأوائل لراية الإسلام في عهد النبي ﷺ... جاءوا من سفوح جبال الهملايا ليحملوا مسؤولية الذود عن هذه الراية وعن هذا الدين طوال عصور وعصور (ندعو الله تعالى أن يحفظ هذه الأمة النجيبة في طريق الدفاع عن الإيمان وعن القرآن).

أجل، لقد كان رسول الله ﷺ يبلغ رسالة ربه بثقة دون أن يتنازل عن شيء منها ودون أن يساوم على شيء منها... كان واثقًا من يومه ومن غده إذ يقول لهم «إن اتبعتموني دانت لكم العرب والعجم وسيكون البيت الحرام مثابة للناس وأمنا...» وعندما حان الوقت المناسب تحقق كل ما قاله لهم، ففي كل عام يطوف الملايين من الناس حول البيت الحرام مثلما ينجذب الفراش إلى هالة النور. وحينما قال النبي ﷺ هذا القول لم يكن هناك أي أمارة أو إشارة أو علامة تؤيد هذا القول... أجل، فإن من الضروري أن يثق الزعيم والقائد بما يقوله لكي ينشر الثقة بين الآخرين.

ينقل الحاكم في المستدرك حادثة عَدِيّ بن حاتِم التي سبق وأن ذكرتها وأستسمح القراء في إعادتها هنا... وعدي هو ابن حاتم الطائي المشهور في التاريخ العربي بسخائه وجوده. ينقل لنا عدي بن حاتم ﷺ حادثة إسلامه وكيف زار النبي ﷺ وهو متردد فقال له النبي ﷺ: «فلعلك إنما يمنعك عن الإسلام أنك ترى من حولي خصاصة. إنك ترى الناس علينا إلبًا.» ثم قال: «هل رأيت الحِيرة؟» قلت: لم أرها وقد عرفت مكانها قال: «فليوشكن أن الظعينة ترحل من الحِيرة بغير جوار حتى تطوف بالبيت، وليفتحن علينا كنوز كسرى»، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ويوشك أن لا يجد الرجل في ماله صدقة»

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٣٦٢/١؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٥٨/٢-٥٩؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٥٢/٣؛ المستدرك للحاكم، ٤٣٢/٢.

وقال: فرأيت الظغينة ترحل وأحلف ليفتحن الثانية بقول رسول الله ﷺ وهو الحق.[١]

هكذا كان رسول الله ﷺ يخاطب بكل ثقة أصحابه والذين التفوا من حوله. ولم يكن يدور بخَلَد أحدهم ذرة واحدة من الشك أو الريبة حول ما يقوله، كما أن الأيام كانت تؤيد ما يقوله عندما يحين أوانه.

ب. طلب الأغنياء التمايزَ

كان الفقراء أول من استجابوا للرسول ﷺ، وكانوا في الأغلب من الشباب، أما الأغنياء من مشركي قريش من الذين تحجرت أدمغتهم في بوتقة الكفر فكانوا في عناء دائم. ولكن عندما ظهر سر الآية ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا﴾ (النصر:٢). أدرك هؤلاء أيضًا ضرورة الدخول في دين الله. ولكن معظم من كانوا حوله في البداية كانوا من الشباب... من الشباب الفقراء.

ولم يكن أشراف مكة وأغنياؤها ورؤوس القوم مرتاحين من هذا، فكانوا يراجعون الرسول ﷺ ويطلبون منه أن يخصص لهم يومًا لا يدخل فيه أحد عليه غيرهم... أي لم يكونوا يرغبون في حضور الفقراء أمثال بلال وعمّار وياسر وخبّاب، فهم أشراف القوم فكيف يجلسون معًا مع الفقراء والدهماء![٢] ولأنهم اعتادوا في ذلك المجتمع على مثل هذا التصرف والسلوك فإنهم عدوا طلبهم هذا طلبًا اعتياديًّا وطبيعيًّا ومشروعًا. ولكن الأمر لم يكن كما يتصورونه، ومع أنهم كانوا يتوقعون من الرسول ﷺ الترحيب بطلبهم هذا إلا أن الله تعالى كان قد نبه نبيه قائلاً له ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:٥٢).

أنت رجل الشؤون والمهمات الكبرى، فلا تشغل نفسك بالحسابات الصغيرة أمثال طرد المؤمنين الفقراء رجاء هداية الأغنياء... لأن هذا ظلم، وأنت بعيد عن الظلم... أجل، إن من الظلم أن تطرد الفقراء لكي يرضى عنك الأغنياء. وعصم الله تعالى نبيه -وهو أعدل إنسان- منذ البداية في هذا الأمر.

ويتناول الموضوع نفسه في سورة الكهف فيقول لنبيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٢٥٧/٤؛ المستدرك للحاكم، ٥١٨/٤.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢٩/٣.

رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨).

كان القرآن يقول له: كن مع الذين يدعون ربهم ويذكرونه على الدوام، ولا تصرف نظرك عنهم إلى غيرهم، وعاشر هؤلاء لأن رحمة الله معهم، فقد يرحم الله الناس بفضل هؤلاء... بفضل عمّار أو ياسر أو بلال وعلي وخبّاب وابن مسعود، فهؤلاء هم مطمح أنظار الرحمة الإلهية وقد يدفع بهم الله البلايا فكأنهم يقومون بوظيفة مانعة الصواعق. كان القرآن الكريم يقول هذا في الوقت الذي لم يكن حول الرسول سوى أربعة أو خمسة من الفقراء... ولكنه مع هذا كان متفائلاً وواثقًا من المستقبل ويؤمن بأن معظم هؤلاء المتمردين العتاة سيسلسون قيادهم وسيقبلون على الإسلام وسيضعون القرآن فوق رؤوسهم، لذا فلماذا يقوم بطرد المؤمنين الفقراء المتحلقين من حوله من أجل هؤلاء؟ ثم كيف يستطيع الرسول ﷺ إبعاد هؤلاء عنه وهو الذي كان يقول: «إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ وعمّار وسلمان.»[1]

أجل، فبينما يشتاق الجميع إلى الجنة فإن الجنة تشتاق إلى هؤلاء... تشتاق إليهم كما يشتاق العاشق إلى معشوقه، وكما تشتاق العين إلى الجمال وكما يشتاق الوجدان إلى الرؤية والقلب إلى المشاهدة.

كان سيد المرسلين يعلم أن هذا النفر المحيط به هو بالمستوى الذي يستطيع أن يحكم العالم وأن يجري انقلابا كبيرا فيه، لذا كان يتصرف حسب علمه هذا، لذ لم يكن يشك لحظة واحدة أن الدنيا كلها من شرقها إلى غربها ستدين بالمبادئ وبالحقائق التي جاء بها، إذ كان واثقًا من إنجاز الله تعالى وعده له ومطمئنًا لذلك. ومن ثم رد طلب المشركين ولم يلق لهم بالا، بل أحاط هؤلاء الفقراء بحبه واحتضنهم برعايته.

---

[1] الترمذي، المناقب ٣٣.